الفصل السادس عشر

شخصية محمد علي
والحكم على عصره

لا جدال في أن محمد علي قد سما بأعماله إلى مصاف عظماء الرجال، وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة وتدرج من جندي بسيط إلى أن ارتقى عرش مصر، فأسس ملكًا عريضًا، وغالب دولًا كبارًا، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة، وبعث حضارة زاهرة، وأنبت ثقافة كان لها الفضل الكبير في نشر لواء العلم والعرفان في وادي النيل.

فالرجل الذي ينشئ كل ذلك، وكان أميًّا لم يتلق تعليمًا عاليًا ولا أوليًّا، لا بد أن يعد بحق من عظماء الرجال، ولولا عظمته لما تخطى نشأته الأولى، وإذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة أقرانه، ولكن اضطلاعه بالمهمات الكبرى التي أخذها على عاتقه، وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات، وبقاء أثره خالدًا طوال هذه السنين وإلى ما شاء الله، يدل على مبلغ عبقريته.

نعم إن العناية الإلهية لاحظته في مختلف أدوار حياته، وكان لها فضل كبير فيما وصل إليه من عز وسؤدد، ولكن من من العظماء لم تكن للعناية والأقدار دخل أيما دخل فيما نالوه من نجاح وتوفيق؟ ومَن مِن العظماء المجهولين لم يقبر عظمتهم إدبارُ الحظ وغَلَبَةُ الأقدار؟ فمع اعتقادنا بما للحظ والعناية الإلهية من الأثر في حياة محمد علي، لا نشك في أن المواهب التي توافرت لديه كان لها القسط الأكبر في نجاحه وتوفيقه.

وأول تلك المواهب ذكاؤه الخارق، وبعد نظره، وسعة حيلته.

فقد جاء إلى مصر ضابطًا صغيرًا في الحملة العثمانية التي جردتها تركيا لإخراج الفرنسيين من البلاد، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية، فلو كان على ذكاء عادي

لانتهى أمره بما انتهى إليه معظم ضباط الجيش التركي، ولكنه لمح من خلال الأفق ما تتمخض عنه الأمة المصرية من نزوع إلى الحرية، وما يجيش في صدرها من آمال كبار، وما نشعر به من سخط على نظام الحكم القديم، فماشاها في ميولها وسايرها في آمالها، ورسم لنفسه خطة الوصول إلى عرش مصر من طريق إرادة الشعب، وهي فكرة مبتكرة بالقياس إلى ذلك العصر تدل على ذكاء محمد علي ودهائه وبعد نظره.

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول إلى السلطة بين مختلف الأطماع والمنازع المختلفة، فلقد كان يعمل لهذا الغرض وأمامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الأخرى، وهما سلطة المماليك حكام البلد الأقدمين، وسلطة الوالي التركي الذي كان يمثل حكومة الأستانة، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا في البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها، ثم كانت أمامه عقبة أخرى وهي سلطة الجند الأرناءود والدلاة وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية، فاستطاع محمد علي بدهائه وصبره وذكائه أن يضرب كل سلطة بالأخرى، وأن يشق لنفسه طريق النجاح والوصول إلى الغاية التي يطمح إليها.

كان «خسرو باشا» (والي مصر سنة ١٨٠٢م) يعمل للتخلص من محمد علي، فحاربه هذا بالجند؛ إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتبهم المتأخرة، وكانت نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة، وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله؛ ولكنه لم يشأ أن يتعجل الوصول إلى السلطة؛ بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تتهيأ له الظروف الملائمة التي يستقر له فيها الحكم من غير منازع، فترك رؤساء الجند ينادون بطاهر باشا قائمقامًا، ولعله كان يتوقع ألا يطول مقامه في الحكم لما اشتهر عنه من الظلم، فثار عليه الأتراك الانكشارية وقتلوه، وخلا منصب الوالي من جديد، غير أن محمد علي تريث أيضًا ولم يتعجل، وكان الانكشارية قد اتفقوا على تعيين أحمد باشا واليًا على مصر، فلم يرض بهذا التعيين وتحالف مع الأمراء المماليك على إقصائه وترك السلطة لهم؛ وألقى في روع كبيرهم إبراهيم بك أنه الأحق

بولاية مصر، وبذلك ضرب الأتراك بالمماليك، ثم ترك هؤلاء يحتملون أمام الشعب مساوئ الحكم، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التي أقصتهم عن الحكم.

ويدلك على دهائه وأناته أنه كان في استطاعته أن يثب إلى الحكم بعد سقوط دولة المماليك؛ لكنه آثر الانتظار واختار للولاية خورشد باشا، وبقي هو في صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتودد إلى زعمائه، فلما ساءت سيرة خورشد كثرة مظالمه ثار عليه الشعب وخلعه كما رأيته مفصلًا في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية»، وهناك طلب الزعماء من محمد علي أن يقبل منصب الولاية وألحوا عليه في أن يجيب طلبهم، فقبل ما عرضوه عليه وصار الوالي المختار من الشعب.

واستطاع بذكائه وصدق نظره في الأمور وسعة حيلته أن يذلل العقبات التي اعترضته في السنوات الأولى من حكمه، فتغلب على دسائس الأتراك والإنجليز ومساعي المماليك، كما فصلنا ذلك في الفصول الأولى. كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته، وخاصة إذا لاحظت أنه إلى ذلك الحين كان أميًّا؛ إذ من المعروف أنه لم يبدأ في تعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين وبعد أن تبوأ عرش مصر وتخطى العقبات الأولى في حكمه.

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالأناة والحكمة أنه لما اعتزم إدخال النظام الجديد في الجيش المصري لم يغامر بإنفاذ عزمه؛ بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لإنفاذ مشروعه، ولو أنه استعجل الأمر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود، ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التي تودي بمراكز الولاة بل توردهم موارد الحتف والهلاك.

ولعلك تذكر حين هودته من الإسكندرية بعد جلاء الحملة الإنجليزية عن البلاد سنة (١٨٠٧م) كيف ثار الجند في القاهرة وعاثوا في أسواقها فسادًا، وكيف استعمل الحكمة في إخماد ثورتهم. واعتزم من ذلك الحين أن يتخلص من الجيش القديم ويحل محله جيشًا حديثًا قوامه النظام والطاعة، ولكنه لم يمض في تحقيق برنامجه إلا حوالي

سنة (١٨١٩-١٨٢٠م)، وما ذلك إلا لما آنسه من الخطر إذا هو أنفذ مشروعه قبل ذلك الحين، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لا تصدر إلا عن دهاقين الساسة ذوي الرءوس الكبيرة، وبهذه الصفات نجح في تأسيس الجيش المصري النظامي، فتأمل كيف انتظر أكثر من اثنتي عشرة سنة قبل أن يبدأ في إنفاذ فكرته، وكيف أنه عندما بدأ في دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين في (أسوان) أي في أقاصي الوجه القبلي، لكي يبدأ بمشروعه بعيدًا عن الدسائس والفتن التي كانت القاهرة مسرحًا لها.

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة استطاع محمد علي أن يشق لنفسه طريق النجاح، وهو من هذه الناحية جدير بأن يعلم ساسة الدول وزعماء الأمم كيف يأخذون الأمور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل.

ومن مواهبه التي ذللت العقبات في طريقه وكفلت له الاضطلاع بالمهمات الجسام، الشجاعة وعلو الهمة، ومضاء العزيمة. فهذه الصفات كانت من أكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير.

أمَّا عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر فلعلك تذكر حادثة (براوسطه) وكيف امتنع أهلها عن أداء ما عليهم من الضرائب، فعرض محمد علي على حاكم قولة أن يأذخ على عهدته إجبار أهلها على الإذعان، وسار إليهم في عشرة من الجند، وكيف استطاع أن يعتقل أعيان المدينة ويسوقهم إلى قولة، وبذلك أذعن أهل براوسطه وأدوا ما عليهم من الخراج[١]. فهذه الحادثة تدلك على ما جبلت عليه نفس محمد علي من الجرأة، واقتحام الأخطار، فلقد كان هدفًا لأن يذهب ضحية مغامرته في تلك القرية الثائرة، ولا شك أن تلك الشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته؛ بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم[٢].

(١) انظر الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٣١١.

(٢) الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٣١٢.

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته في إقدامه على الحروب ومواصلته القتال رغم ما اعترضه من الهزائم والعقبات، واحتفاظه برباطة جأشه في أشد الأوقات حرجًا، ولو لم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخصر مواهبه لاضطربت نفسه وتولاها اليأس أمام المخاطر التي استهدف لها في كثير من المواطن.

ففي حرب الوهابيين استهدفت الحملات التي جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة، وكانت تجيئه في بعض المواطن أنباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث، فلم يتزلزل لهذه الأنباء، بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة، وكان كلما أخفقت حملة جرد غيرها، ماضيًا في تحقيق غايته، وقد شهد له الجبرتي، ولم يكن من مناصريه، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التي حلت بالجيش المصري في واقعة (الصفراء) فقال عنه: «ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى».

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية لتحققت أنه لولا همة محمد علي وقوة إرادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثماني سنوات متواليات حتى وصل بها إلى نهايتها من الظفر بالوهابيين، وبسط نفوذ مصر وسلطتها على جزيرة العرب.

وتبدو لك أيضًا شجاعة محمد علي في إعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها، فإن محاربة السلطنة العثمانية -وهي وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التي لا ينضب معينها- أمر يحتاج إلى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة؛ بل والمجازفة والاستهداف للأخطار؛ إذ لو ظفر به السلطان في واقعة من وقائع تلك الحروب الطاحنة لكانت دولة محمد علي -بل حياته- عرضة للخطر، فهذا الإقدام له قيمته في الحكم على شخصيته.

وإذا قال قائل: إن محمد علي إنما حارب تركيا في الوقت الذي بدت عليها فيه أعراض الضعف والهرم، فماذا نقول عن وقوفه في وجه الدول الأوربية جمعاء عقب انتصار الجيش المصري في بيلان وقونية، واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته، فإذا

رجعت إلى الخطابات التي وجهها إلى مندوبي الدول واعتراضه على تدخلهن ومصارحتهن بعدم النزول على إرادتهن تجلي لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه، ثم ماذا نقول في تحديه الدول الأوربية في الحرب التركية الثانية عقب انتصاره في واقعة نصيبين ورفضه الإذعان لقراراتها وطرده سفراءها من مصر؟ كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرع به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب، وتلك لعمري صفات العبقرية والعظمة.

وتتبين قوة عزيمته من أنه أنشأ من العدم جيشًا ضخمًا على أحدث نظام، وأسطولًا قويًّا رفع علم مصر فوق ظهر البحار، وأوجد حكومة منتظمة حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وأنشأ المدارس والمعاهد حيث كانت الجهالة فاشية، والمستشفيات حيث كانت الأمراض تفتك بالأهلين، وشق الترع وأقام الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدرًا دون أن تنتفع منها الأراضي، وأسس البعثات وأقام المصانع والمباني العامة، كل ذلك يدل على ما تفعله العزيمة الحديدية، وقد شهد له الجبرتي بقوة العزم والشهامة، فقال عنه لمناسبة إصلاحه سد أبو قير: «فأرسل إليه المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين والمسامير وآلات الحديد والأحجار والمؤن والأخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم حتى تممه، وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان، ولو وفقه الله لشيءٍ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أقرانه». وهي شهادة لها قيمتها من المؤرخ عُرف بأحكامه الشديدة عن محمد علي.

وقد ذكر عنه الكونت بنديتي قنصل فرنسا العام في مصر وقتئذ أنه لما شرع في إقامة القناطر الخيرية وسمع بالاعتراضات التي أبديت على المشروع من جهة العقبات والمصاعب التي تحول دون نجاحه كان جوابه: «إن هذا صراع بيني وبين النهر العظيم! ولكني سأخرج فائزًا من هذا الصراع!». فهذا الجواب يدلك على مبلغ

شعوره بقوة إرادته، ولولا تلك الإرادة لما اعتزم أن يقهر النيل ويتحكم في جريانه بواسطة مشروعه الكبير.

ومن أخص صفاته التي لازمته طول حكمه حبه للعمل وجلده على احتمال أعبائه، فلم يكن يعرف لنفسه هوادة، وكان يهتم بدقائق أعمال الحكومة ويراقبها بنفسه، ولا ينام من الليل إلا قليلًا، وكان يصرف معظم وقته في مراقبة الأعمال والعمال، ويكثر من التجول في الأقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التي يصدرها، وبهذه الوسيلة كان يبث روح العمل والنشاط في نفوس الموظفين ويشعرهم دائمًا بأن عينه لا تغفل عن مراقبة أعمالهم. وغنيٌّ عن البيان أن هذا يستدعي مثابرة وجلدًا على العمل ونشاطًا لا يعرف الملل والكلال، وهذا النشاط كان أمرًا غير مألوف في ملوك الشرق وأمرائه الذين هم في الغالب أميل إلى الدعة والكسل والانصراف إلى الراحة، وترك حبل الأمور على غاربها والانكباب على الملاهي والملذات، فـ«محمد علي» كان فذًّا بين ملوك الشرق وحكامه، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الأمور. ولقد كان هذا النشاط موضع إعجاب الإفرنج الذين لم يألفوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو في سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة في السودان، ويتوغل في أصقاعه النائية مستهدفًا للمتاعب والأمراض متنقلًا من جهة إلى أخرى على أتم ما يكون من النشاط واليقظة، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم في السن يعطينا فكرة عما غرس في نفسه من علو الهمة وحبه للعمل.

ولا يخفى أن حبه للعمل ويقظته في مراقبة موظفي الحكومة كان لهما فضل كبير في تقدم الأداة الحكومية في عهده وبعْث روح النشاط في فروعها بعد أن كانت الحكومة مصابة بالجمود أو بما يشبه الشلل في عهد الحكم التركي وحكم المماليك.

تلك هي الصفات والمواهب التي تكونت منها شخصية محمد علي وجعلت منه رجلًا عظيمًا. والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها في ولايته الحكم؛ لأن من

العظماء من تتوافر فيهم صفات العظمة؛ ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وأنفسهم، فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما؛ بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث، ومع ذلك يعدون عظماء، ولكن محمد علي كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على أيديهم كبرى الفوائد.

فهو من الوجهة السياسية كان يرمي إلى إنشاء دولة مصرية مستقلة، قوية البأس، عظيمة السلطان، منيعة الجانب، وهي غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية، ولقد حقق فعلًا تلك الغاية وجعل من مصر دولة فتية مستقلة تمتد حدودها من جبال طوروس شمالًا إلى أقاصي السودان جنوبًا، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسمًا من الأناضول، ولئن تراجعت حدود مصر طبقًا لمعاهدة لندره -كما فصلناه في موضعه- فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان، وحققت وحدة وادي النيل السياسية والقومية.

وغنيٌّ عن البيان أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهنات الهينات، ولا ينهض به رجل عادي؛ بل يحتاج إلى سياسي كبير من أعظم الرجال همة ودهاء، فإن أي خطأ يبدر منه كان يكفي لإحباط المشروع في خطواته الأولى، أو هدمه من أساسه بعد تمامه، ولكن محمد علي أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة، ويكفيك برهانًا على بعد نظره في السياسة أنه لما عرض عليه مشروع حفر قناة السويس أعرض عنه رغم إلحاح بعض الماليين والسياسيين الإفرنج؛ إذ رأى أنه سيؤدي إلى تدخل الدول في شئون مصر واتجاه الأطماع إليها وجعلها هدفًا للدسائس الاستعمارية؛ مما يفضي إلى ضياع استقلالها، ومما يؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد: «إذا أنا فتحت قناة السويس فسأنشئ بوسفورًا ثانيًا، والبوسفور سيؤدي إلى ضياع السلطنة العثمانية، وبفتح قناة السويس تستهدف مصر للأطماع أكثر مما هي الآن، ويحيق الخطر بالعمل الذي قمت به وبخلفائي من بعدي».

ولقد حققت الأيام صدق نظره، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه، فلا يغامروا بمستقبل البلاد وينشئوا فيها بسفورًا ثانيًا أفضى إلى ضياع استقلالها، ولكن هكذا شاء جَدُّ مصر العاثر أن يتنكبوا سبيله ويفتحوا تلك القناة التي كانت شؤمًا على البلاد.

إن كفاءة محمد علي كرجل سياسي بعيد النظر ظهرت في تأسيس الدولة المصرية المستقلة، وفي إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل في شئونها، ومن هنا جاءته فكرة المعارضة في فتح قناة السويس، وتبدو هذه الكفاءة أيضًا في كونه مع وفرة أعمال الإصلاح والعمران التي تمت على يده، لم يحمِّل مصر دينًا لدولة أجنبية، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مديد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الأجنبي في شئون البلاد.

ومما يذكر له في هذا الصدد، أن شركة إنجليزية طلبت إليه أن يأذن لها بإجراء إصلاحات هامة في ميناء السويس تزيد من اتساعها وتجعلها مرفأ كبيرًا، فأَبَى أن يجيب الطلب، وكذلك لم يطمئن إلى مد سكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة إنجليزية أخرى، وبعد أن اتفق وإياها على إنفاذ المشروع عدل عنه خوفًا من عواقب امتداد النفوذ البريطاني في مصر.

ففضل محمد علي ليس مقصورًا على تحقيق استقلال مصر؛ بل هو فوق ذلك قد وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال، ورسم السياسة الحكيمة التي تجعله بمنجاة من المخاطر، ولو أن خلفاءه حذوا حذوه واتبعوا سياسته لما تصدع بناء الاستقلال في عهدهم.

تلك كانت أعمال محمد علي ومقاصده من الوجهة السياسية، أما من الوجهة العمرانية فقد كان من الرجال ذوي الخطط الواسعة النطاق في الإصلاح ونشر لواء العلم والحضارة في البلاد، ولا نريد هنا أن نسرد أعماله في هذا الصدد، فيكفي أن نرجع بك إلى ما كتبناه عنها في الفصول السابقة، فهو من غير شك باعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر الحديثة.

وهو من الوجهة الحكومية قد أسس حكومة نظامية، ولم يكن بمصر ثمة حكومة من قبل، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى؛ لكن محمد علي أوجد حكومة مستقرة، لها قواعد وأنظمة ودواوين وإدارات، وسنَّ لها قوانين ولوائح، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول، ولا شك أن فكرة التنظيم هي ناحية بارزة من نواحي عبقريته، فهو الذي بث روح النظام في هيئات الحكومة وفروعها؛ في الجيش، والبحرية، والتعليم، والشئون الخارجية والري، إلى غير ذلك.

كذلك يجب أن نذكر لمحمد علي أنه عني بتنشئة أولاده وأحفاده تنشئة عملية علمية، فلم يتركهم رهن المقاصير والسرايات، وبين الخدم والغانيات، كما كان شأن ملوك الشرق في الغالب، بل عني بتربيتهم وتعليمهم وتعويدهم الاضطلاع بمهام الدولة، ووكل إليهم -كما مر بك- قيادة الجيوش وخوض غمار الحروب، فعهد إلى طوسون قيادة الحملة الأولى على الوهابيين، وإلى إبراهيم الحملة الثانية، وإلى إسماعيل الحملة على السودان، ثم عاونه فيها إبراهيم، وعهد إلى إبراهيم باشا قيادة الجيوش في حرب المورة، ثم في حروب الشام والأناضول، وعلم ابنه سعيدًا فنون البحرية ودرَّبه عليها علمًا وعملًا، وأرسل طائفة من أبنائه وأحفاده إلى فرنسا ضمن البعثات العلمية.

على أن من الواجب أن نقرر إثباتًا للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة، ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول: إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها الجيل الذي عاش في ذلك العصر؛ بل انتفعت منها الأجيال التي توالت من بعده، أمَّا جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق، ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية، ولاحق الملكية، فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها؛ كما احتكر التجارة والصناعة، وقد أساء هذا النظام إلى الشعب إساءة كبرى؛ لأنه ضرب عليه حجابًا من الفقر والجمود، وصارت الحكومة هي المالكة لكل أطيان القطر وحاصلاته وتجارته وصناعته، وهذه الحالة هي

موضع ضعف في سياسة محمد علي الاقتصادية والاجتماعية. وعلى تعدد مشاريعه في الإصلاح لم يفكر تفكيرًا جديًّا في إيجاد نظام للشورى يعوِّد الشعب الاشتراك في الحكم كما بينا ذلك، وهذا عيب كبير في سياسته.

وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده، فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك.

حدثني صديق لي عن جده الذي أدرك عصر محمد علي أنه كان يقول: إننا كما نحتمل مظالم حكمة لأنها بمقارنتها بمظالم المماليك كانت أخف منها وأرحم، وهذا القول فيه ناحية من الصواب، وينير لنا طريق الحكم على عصر محمد علي، فلأجل أن نحكم على عظيم من العظماء أو على عصر من العصور يجب علينا أن ندرس الرجل في مجموعه، والعصر بأكمله، ثم نقارن بين ذلك العصر والعصر الذي سبقه، ثم الذي تلاه، وبذلك يكون الحكم صحيحًا، والرأي فيه سديدًا، فإذا نحن نظرنا إلى تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وباعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر، وأنه من هذه الناحية أكبر بَنَّاء في صرح القومية المصرية، ومهما عددنا على حكمه من المآخذ فمن المحقق أنه لو لم يتول حكم مصر لظلت كما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الجهلاء الذين كانت ترسلهم الأستانة كل سنة أو سنتين، والذين لم يكن لهم همٌّ سوى الحصول على نصيبهم في الخراج وإرسال الخزانة السوية إلى الأستانة، ثم يتركون شئون الحكومة في يد المماليك يعيثون في الأرض فسادًا، ويجعلون الحكم أداة للمظالم والفوضى، مما أدى إلى تأخر البلاد في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلو لم يتول محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضى، كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين، أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار، كما احتلت فرنسا الجزائر سنة (١٨٣٠م)، وما زالت تحتلها إلى اليوم (تاريخ آخر طبعة من الكتاب).

فهذه المقارنة تظهر لنا فضل محمد علي ومبلغ المزايا التي عادت على مصر من عبقريته وجهوده ومواهبه، وهذا فيما نعتقد هو حكم الإنصاف على محمد علي وعصره.

إبراهيم باشا
قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال
(١٧٨٩ – ١٨٤٨)